

الفصل الثاني

تكيف الأسرة مع الطفل التوحيدي

obeikandi.com

الفصل الثاني تكيف الأسرة مع الطفل التوحدي

مقدمة :

ربما تكون قد قضيت سني طفلك الأولى متأرجحاً بين الأمل واليأس، وبين الخوف والرجاء . فمن ناحية تتمنى من كل قلبك ومن صميم فؤادك أن تصدق تلك الإشارات التي تشير إلى أن ابنك يتمتع بكامل الصحة وموفور العافية ، وأنه يحرز تقدماً طبيعياً . ومن ناحية أخرى فإنك لا تستطيع أن تجتث القلق من أن شيئاً ما بخصوص طفلك ربما لا يكون على ما يرام . وفي البداية ربما تكون قد استطعت أن تفسر بعض المخاوف ، ولكن مادامت هناك مخاوف جديدة تأتي لتحل محل المخاوف القديمة، فربما تجد نفسك مندفعاً نحو اختلال التوازن العاطفي .

عاد الأبوان إلى المستشفى وبصحبتها طفل جميل ، بهي الطلعة ، عذب الابتسامة، صحيح البدن ، ممتلئ الجسم . ولكنهما انتابهما القلق بينما أخذ طفلهما في النمو؛ ومما أثار مخاوفهما أن الطفل الأول جون كان يعاني من إحدى إعاقات النمو، ولذا فاتبهما أخذاً يراقيان نمو أخيه مايك بقلق شديد ليريا ما إذا كان سيسير في نموده على نحو طبيعي أم لا . وكان الأبوان يطمان ما الذي يبحثان عنه أو على الأقل ظنا أنهما يعرفان ما يبحثان عنه .

وكانت الأم بعد عودتها من زيارتها الشهرية لطبيب الأطفال الذي يتابع مايك في عامه الأول تضع الطفل موضع الاختبار والامتحان، فكانت تجطه يقوم بالتمرينات أو الحركات البسيطة التي كان يطلبها منه الطبيب في العيادة. وكان مايك يقوم بها ، فكان يتابع الأشياء بعينه، ويمد ذراعيه لوالديه، وينظر إلى وجهيهما ، وكان يضحك عندما يداعبانه، وكان يتدحرج، ويقف، ويحبو، وكان من الطبيعي أن يتنفس الأبوان الصعداء وأن يشعرا أن كل شيء على ما يرام .

وعندما بلغ مايك سنة من العمر ، بدأت الشكوك تطفو على السطح مرة ثانية، فالطفل الذي كان مفعماً بالتعبير ومملوءاً بالحياة صار لا ينظر إلى والديه إلا نادراً. كذلك كان يبدو وكأنه ينظر من خلالهما إلى ما وراءهما مستغرقاً في التفكير العميق . ورغم تشجيع والديه رفض مايك المشي، وكان يكتفي بالجلوس

والرفرقة بذراعيه، وظن الوالدان أن طفلهما يفكر في الفعل بدلاً من أن يقوم به. ولم يكن مايك يلعب بالدمى على النحو المناسب، وبدلاً من ذلك كان يحملها ويطوف بها. وظن الوالدان أنه لا يشعر بالأمن. وكان أكثر شيء أثار انزعاجهما أنه لم يكن يستجيب عندما يناديان اسمه. وكان الوالدان يعلمان أنه لا يعاني من مشكلة في السمع، حيث كان يأتي مسرعاً عندما يسمع خشخشة غلاف الشيكولاتة.

وكان فشله في الكلام وعجزه عنه هو الأمر الذي دفع والديه لأن يعتقد أن مشكلاته ليست مجرد جزء من مرحلة سيجتازها. ورغم أنه كان يصدر بعض الأصوات، إلا أنه لم ينتج أي لغة هادفة حتى سن عامين. وكانت طريقته في الاتصال هي أن يرمي الأشياء ويثور.

ورغم أن الوالدين كانا يتسامحان مع نوبات الغضب الشديدة التي كان مايك يفاجئهما بها بين الحين والحين، فإنه بدأ على ما يبدو يثور ويهيج على نحو مستمر فكان يرمي الأشياء إذا حاولت أمه أو أبوه أن يقرأ له قصة أو أن يبنيا معه برجاً من المكعبات. كما كان يثور ثورة عارمة إذا قاطع أحد أي نشاط من أنشطته المفضلة التي يقضي بها وقته مثل الجلوس أو الرفرقة بذراعيه، أو النظر في يديه، وكان يرمي الأشياء لأسباب لا يعلمها إلا هو فقط.

وكانت نوباته المزاجية مستمرة وطويلة ومكثفة وعنيفة. فكان يضرب رأسه في الحائط، ويصرخ بأعلى صوته، ومن أعماق رئتيه، ويركل ما يصادفه، بل ويعض نفسه. وفطنت الأم للأشياء التي يريدها، وأعدت قائمة بها. وفي بعض الأحيان كانت تفهم ما يريده وتلبيه على الفور، وفي أحيان أخرى كانت لا تفهم ما يريده، وحينئذ تقوم الدنيا ولا تقعد؛ حيث تضطرم نار نوباته وتستمر في اشتعالها، وتزداد اضطراباً وتأججاً.

حتى إذا استيأس الأبوان وتملك منهم الإحباط وأخذ منهما الارتباك كل مأخذ، ذهبوا إلى أخصائي كبير في طب الأعصاب علهما يجدا لدى الطب الحديث جواباً كافياً أو دواءً شافياً لحالة ابنهما، وعلهما يجدان من يقل عثرتهما ويهدئ من روعهما.

١- تلقي الخبر :

ربما يبحث الآباء عن المساعدة الطبية نتيجة تتابع من الأحداث أو الأعراض . فلربما يقلق الوالدان لأن طفلهما لا يبتسم على الإطلاق أو لأنه يشبك يديه على نحو مستمر ومتواصل ، أو لأنه تعلم الكلام ثم لأسباب غامضة نسي كيف يتكلم . وأياً ما كان الأمر ربما لا يدور بخلد أي من الوالدين أي شيء له علاقة بالتشخيص الفعلي لطفلها .

ففي حالة مايك أخبر الوالدان بعد أسبوع من الاختبارات المكثفة أن طفلها أقرب ما يكون إلى التوحدية، أشبه بالطفل التوحدي . وعندما يعلم الأبوان أن ابنهما يعاني من التوحدية أو من أحد اضطرابات النمو المنتشرة ، أو أي اضطراب آخر مهما كان اسمه، فإن ذلك يمثل لهما صدمة قاسية ؛ لا سيما إذا كانا قد أمضيا شهوراً في القلق والأرق بخصوص مستقبل طفلها . وبالنسبة لبعض الآباء فإن ألم تلك الصدمة يكون من القوة بمكان بحيث يذرفون الدمع عندما يتذكرون ذلك ولو بعد حين ؛ ولو بعد عدة سنين . فليس هناك أسوأ من أن يعلم الوالدان أن ابنهما مصاب بالتوحدية . وربما يشعر الأبوان بالهم والغم والكرب العظيم بحيث يصعب عليهما أن يتخيلا أنهما سيستميغان شيئاً في الحياة بعد ذلك الخبر، وربما يصعب عليهما أن يتخيلا أن تزور البسمة شفاههما أو تجد الراحة إليهما سبيلاً بعد ذلك الخبر .

وليس هناك من يزعم أن التكيف مع تشخيص الطفل على أنه توحدي أمر سهل . فليس ثمة وصفات سرية ، ولا كلمات سحرية تستطيع أن تصرف الألم ؛ اللهم إلا ما يربط الله به على قلوب عباده المؤمنين لكي لا يأسوا على ما فاتهم، ولا يجزعوا لما أصابهم ، وبما يتجلى به سبحانه على عباده الصابرين من نعمة الرضا ، فيستعذبون العذاب ويستشرفون فيه رحمة الله . وبذلك الإيمان ، بتلك العزيمة تستحيل المحن والإحزن إلى منح ، ويتحول المم الزعاف إلى ترياق ، ويستطيع الأبوان أن يصنعا من الليمونة الحامضة شراباً حلو المذاق . فأولى الخطوات على الطريق هي التسليم الكامل لمراد الله والرضا بما قسم الله ، ثم يلي ذلك أن يفهم الوالدان مشاعرهما ، وأن يتعلما العمل من خلال تلك المشاعر ؛

ففسى ذلك أن يعيدهما إلى طريق الاستمتاع بالحياة . وسيجد الآباء في هذا الفصل عوناً على تصنيف مشاعرهم وأن يلتفتوا إلى مساعدة طفلهم وبقية أفراد العائلة ومن لهم حق عليهم .

٢- مواجهة المشاعر :

إذا لم يكن لدى الأبوان خلفية عن التربية الخاصة أو الطب فربما لا تعني كلمة " التوحيدية " لهما كثيراً عندما تقرر سماعهما لأول مرة . ففي حالة مايك ، تحكي أمه كيف أن الأخصائي في طب الأعصاب قد أوضح لهما أن طفلهم " أشبه بالتوحيدي " وكان ذلك المصطلح، فضلاً عما ذكره ذلك المتخصص بأن الطب لا يستطيع أن يفعل شيئاً للتوحيدية هو كل ما سمعته تلك المسكينة . فكانت تنصت للطبيب وهو يشرح ذلك الاضطراب، ولكنها لم تسمع ولا كلمة واحدة من كلماته، إذ اسودت الدنيا في عينيها، وزاغ بصرها، وصمت أذناها فكانت ذلك الحاضر الغائب.

وحتى تغوص خطورة تشخيص الطفل وتختفي فإن مشاعر الآباء تبقى هي المسيطرة . وبينما يتردد الآباء في خطواتهم نحو تقبل الأمر فإن مشاعر الرفض واليأس والحزن والغم تقذفهم من كل جانب . ويزيد الأمر سوءاً أن يشعر الآباء بالخزي لأن بعض تفاعلاتهم وردود أفعالهم أصبحت سيئة ، ويستنتجون أنهم صاروا أناساً سيئين لصدور تلك التفاعلات عنهم . والحق أن ليس في الأمر شيء يدعو للخزي . فمشاعر الآباء بخصوص طفلهم التوحيدي ومشاعرهم بخصوص تلك المشاعر طبيعية تماماً .

٣- الصدمة :

غالباً ما تكون الصدمة أول رد فعل للآباء عندما يتم تشخيص طفلهم على أنه توحيدي . وربما يظن بعض الآباء أن تلك الكوارث المؤلمة والمصائب الفاجعة لا تحدث إلا في السينما، وإذا كان لها أن تحدث في أرض الواقع فإنهم أبعد ما يكونون عنها ، وكأن أبصارهم قد عميت عن رؤية الحقيقة الماثلة أمامهم ، وكأن عقولهم قاصرة عن إدراك الواقع الذي يعيشونه . ويبقى الحال كذلك ريثما يبدأون في فهم الحقيقة التي يواجهونها .

٤. الشعور بالأسى :

وعندما تتلاشى الصدمة ربما يسيطر اليأس على بعض الآباء حتى يصيروا كالمقعدين . وفي البداية يشعر الآباء بأنهم لا حول لهم ولا قوة لأنهم لا يعرفون شيئاً عن التوحدية أو ما الذي يتوقعونه من طفلهم . بعض الآباء ليس لديهم أدنى فكرة عن ما ينبغي عليهم فعله في البداية . بل وربما يشك بعضهم في أن لديه القدرة البدنية أو العاطفية على فعل ذلك إذا علم المطلوب منه . وربما يشعر بعض الآباء أنهم يهونون في غيابات بنر مظلم عميق سحيق ، وأن عليه أن يصل إلى قاع ذلك البئر قبل أن يفكر في الصعود مرة ثانية . وحتى إذا كان لدى أحد الوالدين بعض الخبرة في التعامل مع الأطفال، فإنه لا يستطيع التعامل مع مشكلة طفله . وسرعان ما يلجأ إلى الطبيب في يأس طالبا التوجيه ولكنه يجد أن كل معلومة جديدة يعرفها لا تزيده إلا يأساً وإحباطاً .

٥. الشعور بالذنب :

ومن المشاعر التي يعاني منها آباء الطفل التوحدي الشعور بالذنب . فربما يفتقد كل من الأبوين ، ولو سراً بينه وبين نفسه - ويشعر أنه مسئول عن إعاقة ابنه . وتعتبر الأم أعلى سهماً في ذلك . وربما تتوارد على خاطرها الأسئلة التالية: هل كان قرص الأسبرين الذي أخذته أثناء الحمل هو السبب في ذلك ؟ هل يمكن أن تكون جينائتي الوراثية هي السبب ؟ وربما يكون عناء الآباء شديداً وعذابهم ألماً إذا صادفهم كتاب قديم من الكتب التي كتبت عندما كان يعتقد أن التوحدية يسببها برود الآباء وافتقارهم إلى الإحساس . ولا شك أن مثل هذا الكتاب قد يجعل الآباء يشعرون أن شخصياتهم أو أسلوبهم في التربية أو بينتهم انشغالية غير الملائمة هي التي سببت أزمة طفلهم ، وأنهم هم الذين لديهم المشكلة وليس الطفل، ومن ثم فإنهم أحوج للعلاج من الطفل . وعلى الآباء أن يعلموا علم اليقين أنهم ليسوا ملومين بخصوص اضطراب الطفل حتى وإن كان ذلك الاضطراب يرجع لأسباب جينية ، فإلى الآن لا توجد اختبارات أو فحوص تستطيع أن تتنبأ على نحو أكيد بأن زوجين معينين يمكن أن ينجبا طفلاً توحدياً . كما أن تلك النظريات القديمة قد ثبت خطأها وتم رفضها .

٦- الغضب :

الغضب نتاج طبيعي للشعور بالذنب ؛ حيث يعتقد بعض الآباء أن توحدية ابنهم لابد أن تكون ناتجة عن خطأ شخص ما ، ولا يمكنهم أن يصدقوا أن ذلك الخطب الجلل يمكن أن ينزل بساحة طفل مسكين لا حول له ولا قوة دون أن يوجد من يلقي عليه باللوم.

ففي حالة مايك على سبيل المثال ، بعد أن تم تشخيصه على أنه توحدي ، غضب أبواه على الجميع . فراحا يصبان جام غضبهما على الأطباء الذين عجزوا عن إيجاد علاج لابنهما ، وكان للمطمين والمربين نصيب من حنقهما لأنهم لم يعرفوا كيف يجعلون مايك يحرز تقدماً . وامتد غضبهما ليشمل الأسرة والأصدقاء الذين فشلت كلماتهم ومواساتهم في تخفيف آلامهما ، وبدا لهما أن ليس على وجه الأرض وتحت عنان السماء من يفهم ما يمران به وما يعانيانه .

٧- الغم والحزن:

يستسلم كثير من الآباء للهم والغم والكرب ويعتصر الحزن قلوبهم ، وتصبح أفئدتهم هواء ويركبون مراكب الأسى في بحار الغم التي لا تحدها سواحل ولا تحدد بها آفاق . فقد فقدوا ابنهم الذي طالما علقوا عليه الآمال العظام ، وانتظروا منه المآثر الحسان الجسام ، والذي تراقصت وترقرقت حول مستقبله الأحلام ؛ فإذا بها تتحول إلى كوابيس وأضغاث وأوهام . وإذا بالحياة الأسرية الهانئة التي كان يحلم بها الأبوان تستحيل أنقاضاً وأطلالاً ولا يعلم الأبوان من أين يبدأون جمع الركام .

ففي حالة مايك استسلمت الأم للبكاء والعيول والأنين ، وراحت تطلق الزفريات وتتبعها الحشرات والآهات . التحف الأب بالحزن والغم والكآبة ، ولكنه كان أكثر هدوءاً، ولكنه انطوى على نفسه وطلب أن يترك بمفرده ليفكر وكثيراً ما كان يخرج للصيد في تلك الأيام . وأتت على الأبوين أوقات تمنيا أن لم يولد طفلهما بسبب المشكلات التي تسببها حالته . وكان مصدر قلقهما هو نوعية الحياة التي سوف يحياها طفلهما لأنه على ما يبدو ستوجد فجوات لا يمكن

ملؤها. فلن يستطيع ذلك الطفل أن يشعر بعاطفة نحو أي شخص آخر أو أن يطور صداقة دائمة . وسيكون دوماً أخذاً ولن يكون أبداً معطياً .

وربما يشعر بعض الآباء الذين لديهم طفل توحدي بفترات من الفراغ العميق يهيمنون فيها على وجوههم ويتساعلون : ألم يكن من الأفضل لهم ولطفلهم ألا يولد ذلك الطفل ؟ وألا يولد الأبوان نفسهما ؟ وتلك مشاعر طبيعية وردود أفعال شائعة .

وما هي إلا طريقة للهروب من مواجهة الحقيقة المرة التي تواجه آباء الطفل التوحدي . وبمرور الزمن يصبح الآباء أكثر قدرة على تحمل ذلك الغم .

٨. الرفض :

قبل كل شيء يمكن أن يخفي الآباء نوعاً من الرفض الرهيب . لماذا يرفضون هم من بين الناس بطفل توحدي ؟ وما الذي جنوه ليتحملوا هذا العبء ؟ وغالباً ما يجد آباء الأطفال التوحديين أنهم يرفضون الآباء الآخرين الذين يعتبرون الأمور الطبيعية من أطفالهم منحة عظيمة ومواهب جسيمة . وعلى سبيل المثال كانت والدة مايك تشعر بالغيرة والحقد عندما تستمع لأصدقائها وهم يسردون إنجازات أطفالهم . وكانت تتمنى أن تنزل بهم نازلة أو تحل بساحتهم مصيبة أو تحقيق بهم بلية لكي يقفوا في نفس موقفها ويتجرعوا الألم الذي تجرعته ، ثم كرهت نفسها نتيجة لتلك المشاعر . كيف لها أن تتمنى المصائب لأصدقائها ؟ وأنى لها أن تكون بتلك القسوة ؟

ويرفض بعض الآباء أطفالهم لكونهم ولدوا توحديين . حتى وإن علموا أن الطفل لا دخل له في حالته ولا يسيطر عليها، فبأنهم أحياناً يجدون أنفسهم مضطرين لأن يعتقدوا أن كل شيء سيكون على ما يرام لو أن ذلك الطفل بذل المزيد من الجهد ليكون طبيعياً . فعلى سبيل المثال كانت والدة مايك وأبوه في بعض الأحيان يعتقدان أنه يتصرف كطفل توحدي عن عمد . وكان الأبوان يشعران بذلك لأنهما كانا ينكران عجزه . وبعد كل ذلك تبين لهما أنه يعاني من إعاقة غير ظاهرة فكان يبدو طبيعياً في كثير من الجوانب، ولم يكن يعاني من إعاقات بدنية، وكان يبدو مدركاً واعياً ، وكان ينمو في الحدود الطبيعية. ومع

ذلك كان في بعض الأحيان يتصرف على نحو غريب وشاذ في المواقف الاجتماعية؛ ألا يرى أن الأطفال لا يرفرفون بأيديهم ، ولا يتجردون من ملابسهم على مرأى من الناس ؟. لماذا يتصرف على هذا النحو ؟. هل كانت تلك مناورة منه لجذب انتباه والديه ؟.

ولم يدرك الأبوان أن إدراك مايك للعالم المحيط به مشوه إلا بعد أن فهما طبيعة اضطراب طفلهما . فذلك الطفل المسكين لا يدرك الأشياء كما يدركها معظم الناس . فنظرته للعالم مختلفة وجزئية . وهي أشبه ما تكون بمن يستمع إلى حوار تليفوني ؛ حيث يستمع إلى أجزاء من الحوار فلا يستطيع أن يفهم الرسالة المتضمنة في المكالمة ؛ ونتيجة لذلك فإنه ربما يحصل على رسالة مختلفة عن الرسالة الأصلية .

ورغم أن رفض الآباء لتوحدية طفلهم قد يكون مفهوماً فإنه لن يؤدي إلا إلى بناء حاجز لينهم وبين الطفل إذا تعقوا بذلك الرفض طويلاً . أما إذا تمكن الآباء من أن يتركوا هذا الرفض يذهب أدراج الرياح فإنهم سيتمكنون من أن يستخدموا طاقاتهم العاطفية لمحاربة اضطراب طفلهم على نحو منظم وبناء .

خلاصة القول أن الصدمة، واليأس ، والشعور بالذنب ، والغضب، والغم، والرفض كلها ردود أفعال طبيعية على تشخيص فرد محبوب على أنه توحدي. وربما يعاني الآباء من تلك العواطف مرات عديدة وليس في البداية فقط ، ولكنهم يتكيفون ويتأقلمون مع حالة طفلهم رويداً رويداً .

كيف يمكن تحقيق التكيف ؟

١ - دراسة المشاعر :

مهما كانت قوة الشكوك لدى الآباء بأن هناك خطأ ما في طفلهم ، فإن أسوأ شيء هو أن تتأكد تلك الشكوك . فبعد ذلك تنقلب الأمور رأساً على عقب ، ويصبح عاليها سافلها ، ويستحيل على الوالدين أن يعرفا الطريق الصحيح الذي يجب عليهما أن يسلكاه في ذلك الحين وهما على تلك الحال .

ما أشبه الأمر في البداية بالعيش في "إناء الضغط" . حيث تقود ضغوط الحياة اليومية وتوتراتها ومشاعر الخوف والانتزاع بخصوص مستقبل الطفل إلى الانفجار . وعلى الآباء أن يخففوا تلك المشاعر بطريقة أو بأخرى .

وأقرب الطرق وأقواها هو التسليم لله والرضا بقضائه وصدق اللجوء إليه والوقوف على بابه ؛ فإحساس المؤمن أن زمام العالم لن يفلت من يد الله يقذف بمقادير كبيرة من الطمأنينة في فؤاده . إذ مهما اضطربت الأحداث وتقلب الأحوال فلن تثبت فيها إلا المشينة العليا : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١] . واستشعار رحمة الله في كل قضائه يرسخ تلك الطمأنينة .

فإنه تعالى رحيم بنا ، وهو أرحم بنا من أنفسنا . وهو تعالى حكيم عليم ، لا يفعل شيئاً عبثاً ، بل لا يخلو فعل من أفعاله من حكمة . والحق أنه لا معنى لتوتر الأعصاب واشتداد القلق بإزاء أمور تخرج عن نطاق إرادتنا . بل علينا أن نتوكل على الله ونستريح إلى ما يتمخض عنه المستقبل من نتائج طالما أننا بذلنا جهدنا فيما وكل إلينا من عمل وإعداد واحتياط . ثم علينا أن نستقبل الدنيا بيقين وشجاعة ، وأن نستحضر قول سيدنا علي رضي الله عنه :

أي يومي من الموت أفر يوم لا يقدر أم يوم قدر ؟

يوم لا يقدر لا أحذره ومن المقدور لا ينجو الحذر

ثم بعد التسليم والرضا يستطيع الآباء أن يخطرخوا في بعض الأنشطة التي تنفس ما بداخلهم من مشاعر ، وتخفف الضغوط الواقعة عليهم . فطلى سبيل المثال كانت والدة مايك تخرج إلى الحديقة ، وتنتزع الحشائش بقوة وعنف . وفي أوقات أخرى كانت تدلف إلى الأسواق الصاخبة وتشتري كل لعبة تقع عليها عينها أملاً في أن تسهم تلك الدمي في علاج مايك ؛ وفي بعض الأحيان كانت تخزن تلك اللعب بعيداً عنه أملاً في أن يتمكن من اللعب بها بعد شهر أو شهرين ، وفي أحيان أخرى كانت تدرك أن بعض اللعب والدمي لا تناسب قدراته فكانت ترددها في يأس .

ومهما يكن من أمر ، فإن أهم ما يفعله الآباء هو ألا ينكروا مشاعرهم . بل عليهم أن يستجيبوا لتلك المشاعر . فإذا كان لديهم رغبة في البكاء ، فلا بأس أن يبكوا طالما أن ذلك لا يوقعهم في محذور فقد بكى النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاة ابنه إبراهيم عليه السلام وقال: " إن العين لتدمع ، وإن القلب ليحزن ، وإننا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا " وليس أفضل من أن يقرع العبد باب سيده ؛ فيتوضأ ويدخل في الصلاة ويتضرع إلى مولاه ويبكي له وينزل حاجته بمن يسمع كل شكوى ويغيث كل ملهوف ويجب المضطر إذا دعاه . فمن المهم أن يهدئ مشاعره ليستطيع أن يتقبل حالة طفله وفي نهاية المطاف وإذا ابتعد الآباء عن تلك المشاعر فكيف لهم أن يستعيدوا الهدوء الذهني الكافي ليتمكنوا من اتخاذ القرار السليم بخصوص ؟

٢- إتاحة الوقت للشفاء :

ربما يكون بمثابة السلوان والتعزية والمواساة بالنسبة للآباء أن يستحضروا أن معظم آباء الأطفال التوحديين يمرون بنفس الخبرات التي يمرون هم بها، وأن معظمهم قد تكيفوا مع مواقعهم وتوافقوا مع مشاعرهم ، ولم يكن تشخيص طفلهم على أنه توحدي نهاية العالم بالنسبة لهم . وأهم شيء أن يتحلى الآباء بالتؤدة وأن يتسلحوا بالصبر وطول النفس ، وألا يلهثوا مسرعين وراء الشفاء ؛ فربما أدى التسرع إلى التأخر ، " ورب عجلة تهب ريثا " . وإذا كان البيت مرتبكاً وظن الوالدان أنهما لا يستطيعان إقامة العوج ، فعليهما بالصبر حتى تواتي الفرصة لذلك . وأياً ما كانت الأحوال والظروف فعليهما ألا يحاولا حل جميع المشكلات في الحال. وحتى إذا كان الأبوان يستطيعان ذلك فربما لا تكون لديهم المعرفة الكافية والمعلومات الوافية عن التوحدية والتي تؤهلهم لمعرفة نقطة البداية على الطريق السليم .

وربما يستغرق ذلك بعض الوقت، ولكن في يوم ما سوف يستيقظ الأبوان على صبح يوم جديد، ويدركان أن شيئاً ما قد تغير.. وسوف يصفو ذهنهما ويصبحان أكثر تفاؤلاً .. وسوف يأتي اليوم الذي يقبلان فيه توحدية طفلهما ، بل وتصبح نظرتهما للطفل لا تختلف عن نظرتهما له حتى قبل أن يتم تشخيصه على

أنه توحدي ، فهو لم يفقد أيًا من الخصائص والأسباب التي جعلته يدخل إلى صميم قلبي أبويه ويتبوأ أعز مكان فيهما قبل إجراء ذلك التشخيص ، ولكن الذي حدث هو تشوّه طارئ وعارض ومؤقت على إدراك الأبوين لخصائص الطفل . وبالمثال يتضح المقال ، فقد جعل تشخيص مايك على أنه طفل توحدي ينظر إليه أبواه بطريقة مختلفة . فعندما كان طفلاً رضيعاً كان مفعماً بالمعاني، وكان وجهه يتوقد كأنه قطعة قمر؛ لا سيما عندما يكون سعيداً ، وتتورد وجنتاه كأنما تنفقا في وجهه حب الرمان . وكان يرغب ويزد من الإثارة إذا رأى طائرة في السماء . فكان يقفز ويقفز ويرفرف بيديه ، ويصيح من الفرح والسرور، وكان يرمق الطائرة بعينيه حتى تتوارى عن نظريه . ويصرخ ويجري من أقصى الحقيقة إلى قصاها . وكان حماسه بمثابة الرحلات الجوية الصاخبة التي تقلع فوق رأس والديه .

وريثما علم الوادان أن مايك توحدي فإنهما - في الحال - بدءا ينظران إلى حماسه على أنه نقطة ضعف وليس نقطة قوة . ومما زاد قلقهما أنهما كانا لا يستطيعان التنبؤ باستجابة مايك أو بمدى كثافة تفاعلاته في أي موقف من المواقف . وكانا يشعران أنهما في حالة استنفار دائم . وبين عشية وضحاها تحول ذلك الطفل السعيد الذكي الأملعي المفعم بالحيوية المتوقد حماساً في عيني والديه إلى طفل صاخب مزعج كثير المطالب ولا يمكن ضبطه والسيطرة عليه . والأمر بكل بساطة هو أن تركيز الأبوين تحول من مايك إلى توحديته . ورحم الله من قال :

وعين الرضا عن كلّ عيب كليله ولكن عين السخط تبدي المساويا

وبعد أن يعلم الوالدان بتشخيص ابنهما، وبعد أن يفيقا من صدمتهما ويتقبلا الأمر، وعندما يتمكنان من النظر إلى طفلهما كما هو مرة ثانية، فسوف يكونان على أتم استعداد لاتخاذ خطوات إيجابية لمواجهة توحدية ابنهما . وسيكون الأبوان مستعدين لأن يعظما نفسيهما. بل وسيكون لديهما الرغبة في الوصول إلى الآباء الآخرين. سيبدأن في استعادة الثقة في نفسيهما وفي مواهبهما من جديد . والأهم من ذلك أن تلك المشاعر الخائفة التي قاسياها في

البداية من اليأس والقنوط والغضب والغم والهم والكرب والحزن والرفض ستبدأ غمامتها في الانقشاع .

٣- الحصول على الحقائق :

عندما يبدأ الوالدان في مواجهة مشاعرهما ، سيدركان أنهما لا يستطيعان أن يخطوا للخلف ولو خطوة واحدة، وأنهما لا يستطيعان إلا أن يسيرا إلى الأمام، وإلى الأمام فحسب . ولكي تستمر تلك المسيرة قدماً فإنها بحاجة إلى معرفة الحقائق الكافية عن التوحدية وعن الإعاقات بصفة عامة . وكل امرئ يتشرب المعلومات بطريقته بمعدلات وبنسب مختلفة ومتفاوتة ، ولكن الحذر الحذر من التسرع وإلا فإن الأبوين ربما يجدان نفسيهما مرتبكين بفعل المعلومات المتغيرة . ومن الأهمية بمكان أن يضع الوالدان في ذهنيهما أنه على الرغم من أنهما يجب عليهما أن يتخذا عدداً قليلاً من القرارات بخصوص مستقبل طفلهما ، فليس لزاماً عليهما أن يتخذا تلك القرارات فور قرائتهما عن التوحدية . وربما يكشف الأبوان على الطريق أن الجرعات المناسبة من المعلومات والتي تقدم في الوقت المناسب وبقدر الحاجة إليها ستكون أفضل عون وأعظم مدد لهما على الطريق .

٤- كسب مساندة العائلة والأصدقاء :

ليس من شك في أن المقربين من الآباء سوف يشاطرونهم مشاعرهم عندما يعظمون بأن طفلهم قد تم تشخيصه على أنه توحدى . وربما لا يكون الإخوة والأخوات قادرين بعد على تهذيب مشاعرهم ، وربما لا يعرف الأصدقاء والأقارب كيف يفعلون ذلك بطريقة لينة، ولكن المشاعر ستكون موجودة سواء تم التعبير والإفصاح عنها أم لا .

٥- كسب تعاطف إخوة وأخوات الطفل :

يجد معظم الآباء من الصعب جداً أن ينقلوا خبر توحدية طفلهم إلى باقي أطفالهم . وبادئ ذي بدء فمن الصعوبة بمكان أن يجد الآباء الألفاظ التي يشرحون بها مثل ذلك الاضطراب لأولئك الأطفال الصغار . وربما يكون من المفيد في بعض الأحيان أن يشرح الآباء هذا الاضطراب من خلال خبرات يعرفها الأطفال. فعلى سبيل المثال ، ليوضح الآباء لأطفالهم لماذا يرفرف أخوه بيديه،

يستطيع الآباء أن يسألوهم عن آخر مرة كانوا يكون فيها ولم يستطيعوا أن يتوقفوا عن البكاء؛ وخبروهم أن الحال كذلك بالنسبة لأخيهام فهو لا يستطيع أن يتوقف عن الرفرفة بيديه متلما كانوا هم لا يستطيعون التوقف عن البكاء. وعلى الآباء ألا يتبسطوا في التفسير تبسطاً يخل بالمعنى ويحرف الحقائق عن مواضعها، وعليهم كذلك ألا يمتطروا الأطفال بوابل من الشروح والتفسيرات الفنية.

وعندما يفهم الأطفال أن هناك شيئاً ما مختلفاً بخصوص أخيهام فعلى الآباء أن يساعدوهم على ضبط وتعديل مشاعرهم وربما يواجه الأطفال نفس المشاعر التي واجهها الآباء ، فربما يتساءلون هل كان لهم دور في التسبب في مرض أخيهام؟ وربما يرفضون التحول الذي طرأ على حياتهم ، ويودون لو يموت أخوهم أو أختهم ونظراً للأطفال لا يعرفون ما إذا كانت مشاعرهم طبيعية ومقبولة أم لا ، فعلى الآباء أن يساعدوهم على التحقق من ذلك .

ومن الطرق التي يمكن أن تساعد في جعل الأطفال الصغار يعبرون عن مشاعرهم استخدام العلاج باللعب . وذلك بأن يستخدم الآباء الدمى أو العروض التليفزيونية أو الكتب لبدء الحوار ، وعليهم أن يبدأوا بالمشاعر التي يظنون أن أطفالهم يكافحونها .. ولكي يتمكن الآباء من مساعدة آبائهم على نحو أفضل فإن عليهم أن يفهموا أنهم طبيعيون وأن مشاعرهم طبيعية . وربما يكون مفيداً أن يقوم الآباء بتعريف أطفالهم على أطفال آخرين لديهم إخوة توحديون فإن ذلك سيشرحهم أنهم ليسوا على الطريق وحدهم ، وأن هناك آخرين معهم في نفس القارب الذي يمخرون به عباب المحيط .

٦- كسب مساندة الأجداد :

يقترّب معظم آباء الأطفال التوحديين من نقل خبر إعاقه طفلهم إلى آبائهم (أي أجداد الطفل) بمشاعر وعواطف مشوبة بالألم ؛ حيث يحتاج أولئك الآباء إلى دعم وفهم آبائهم ، ولكنهم في نفس الوقت يقلقون بخصوص كيفية تلقي آبائهم للخبر. ومن الطبيعي أن يمر الأجداد بنفس المدى الذي مر به الآباء من المشاعر والعواطف . وربما يشعرون بالذنب ظناً منهم أنهم هم الذين نقلوا الجينات القاصرة إلى الآباء . وفي نوبات الغضب ربما يلقون باللحمة على زوج ابنتهم أو

زوجة ابنهم . وفي مرحلة الحزن والغم ربما يحزنون على فقد الحفيد المثالي الذي تعققت به قلوبهم وتاق إليه خيالهم ، بل إن حزنهم يكون مضاعفاً ؛ حيث يحزنون على إعاقة حفيدهم ، وعلى الألم الذي يكابده أبناؤهم (آباء ذلك الحفيد) .

وأياً ما كانت ردود أفعال الأجداد فليذكر الآباء دوماً أنهم أجداد ، وتشخيص الطفل على أنه توحدي لن يغير العلاقة بينهم وبينه عنها قبل ذلك التشخيص إلا بالقدر الذي تغيرت به علاقة والدي الطفل عندما علموا بذلك التشخيص . فريثما يتكيفون مع تشخيص الطفل فإن عواطف الأجداد ومشاعرهم الطبيعية ستعود بكامل قوتها .

وليساعد الآباء الأجداد على فهم موقف الطفل والتكيف معه فإن أولئك الآباء ربما يحتاجون لأن يؤكدوا للأجداد أن مشاعرهم وردود أفعالهم وشكوكهم ومخاوفهم طبيعية ويجب أن تناقش بصراحة ، وعلى الآباء أن يزودهم بالمعلومات التي يحتاجونها ، وأن يتيحوا لهم الفرص ليسألوا عما يشاءون . وأخيراً أن يدعوهم ويعاونوهم ويساعدوهم في الاستجابة لاحتياجات الطفل .

٧- كسب مساندة الأصدقاء :

ربما يكون من السهل أن ينتقل خبر توحديّة الطفل من الآباء إلى أصدقائهم . وربما يشعر بعض الآباء برغبة في إبعاد أصدقائهم لأنهم يعتقدون أن أولئك الأصدقاء لن يفهموا ما يقاسونه من عناء ، أو لأن هؤلاء الآباء ربما يرفضون الحياة الأسرية الطبيعية التي يحياها أصدقاؤهم ويحقدون عليها . فأطفال أصدقائهم ينمون ويتعلمون ويتغيرون يوماً بعد يوم في حين يبدو طفلهم التوحدي متجمداً وكأنه لا يستجيب للزمن ولا يحس به . بل ربما ينخرط أولئك الأصدقاء في الحديث عن إنجازات أطفالهم ويتشددون بالحديث عن مآثرهم ومناقبهم ، فيشعر آباء الطفل التوحدي بعزلة لا يعلمها إلا الله ؛ لأنهم حتى إذا أرادوا أن يذكروا بعض إنجازات طفلهم ، فإنهم يعلمون علم اليقين أن أطفال أصدقائهم قد حققوا تلك الإنجازات منذ زمن طويل بل وتجاوزوها إلى ما هو أفضل منها بمراحل . فلا يستطيع أولئك الآباء أن يشتركوا في الحوار . على الجانب الآخر فإن الأصدقاء ربما يتجنبون آباء الطفل التوحدي خوفاً من أن

يتفوهوا بشيء لا يستحسنه أولئك الآباء فيسينون حيث أرادوا أن يحسنوا ، وربما يتجنب بعض الأصدقاء موضوع توحيدية الطفل خوفاً من أن يبدوا غير مهذبين .

وتذكر والددة مايك كيف أن بعض الأمهات ذهبن إليها معاً ليقضين معها سهرة جماعية . وأثناء الحديث ذكرت إحدى الأمهات أن طفلها الصغير رد على التليفون قائلاً : " ماما لا تستطيع أن تكلمك الآن . " فشعرت والددة مايك باغتراب كامل عن تلك المرأة لأن مايك ليس لديه فكرة عن التليفون ؛ بل ربما لا يعلم أن التليفون يمكن أن يرن .

وعلى الآباء أن يتحلوا بالصبر عندما يتعلق الأمر بأصدقائهم، وألا يحكموا على قيمة صداقتهم بطريقة استجابتهم لهم ولطفلهم في البداية . وعليهم أن يعطوهم الوقت الكافي لأن يزورهم وأن يتكيفوا ويتأقلموا مع الوضع الجديد الذي تغيرت فيه حياة أحد أصدقائهم. فالأصدقاء يمكن أن يقدموا قدراً كبيراً من العون والمساعدة إذا أتحت لهم الفرصة. فلربما يستنهض الصديق همه صديقه ويساعده لكي ينهض من كبوته ويقوم بما عليه من واجبات. وليس بغريب أن تكون توحيدية الطفل سبباً في زيادة وتقوية العلاقة بين أبويه وبعض الأصدقاء، وكذلك ليس بغريب أيضاً أن تكون سبباً في إبعاد الأبوين عن بعض الأصدقاء. فربما لا يفهم بعض الأصدقاء التوحيدية ويخافون أن تنتقل إليهم أو أن تؤثر على أطفالهم ؛ ورحم الله الإمام الشافعي إذ يقول :

جزى الله الشدائد كل خير عرفتني عدوي من صديقي

فلا ضير عندئذ أن يتخذ الآباء أصدقاء جدداً يمكنهم أن يتعاطفوا معهم ومع حالتهم وأن يقدموا لهم النصيح والعون في حل ما قد يصادفهم من مشكلات . ربما يجد الآباء مثل هؤلاء الآباء في الجمعيات التي تعنى بالتوحيدية أو في مكان آخر ، وربما يجدون فيهم عوضاً عن فارقوهم من أصدقاء، وربما يتفاني هؤلاء الأصدقاء الجدد في عونهم، وربما يفعلون لهم الأعاجيب، وربما يضيفون إلى فهمهم للتوحيدية ولطريقة التعامل معها إضافات جلية.

٨- تشجيع الزوج / الزوجة :

ينبغي أن يكون الزوج سكيناً لزوجته والزوجة سكيناً لزوجها كما قال الله تعالى ﴿لَسْكُونًا إِلَيْهَا﴾ [الروم : ٢١] فالأصدقاء والعائلة يلعبون دوراً بالغ الأهمية في مساعدة الآباء على مواجهة توحيدية ابنهم. وليس أقرب من الزوج لزوجته ولا الزوجة لزوجها ، وفي هذا المعنى يقول الله تعالى ﴿مَنْ لَبَّاسُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] وليس أقدر منهما على مساعدة كل منهما الآخر. وهما على الطريق ربما يكتشف الزوجان أن العمل الجماعي وفريق العمل مهم وحيوي جداً لهم من الناحية البدنية والعاطفية . فرعاية الطفل التوحيدي ربما تستهلك وتستنفد طاقات وقدرات أحد الأبوين، وهاهنا يتدخل الآخر ليحل محل الأول الذي كاد يترنح ويتهاوى، لكي تستمر المسيرة . كما أن كلاً من الزوجين يمكن أن يكون جنةً ووقايةً للآخر من الألم، وملأذاً وحصناً يأوي إليه الآخر في أوقات الشدة والغم والكرب . ويمكن أن يشد كل منهما أزر صاحبه ، بل ويتنافساً في تحقيق أفضل النتائج وإنقاذ ما يمكن إنقاذه. ولو لم يكن في الأمر إلا أن يشعر كل من الزوجين أن هناك من يشاطره أحزانه ومشاعره لكان ذلك كافياً .

وقبل أن يتمكن الزوجان من العمل كفريق فإن عليهما أولاً أن يصلا بمشاعرهما إلى حالة من الاستقرار بطريقتهما المناسبة وفي الوقت المناسب. وعليهما ألا يتعجلا الأمور . وألا يستعجل أي منهما الآخر إذا لم يكن قد تكيف مع توحيدية الطفل بنفس السرعة التي تكيف بها الأول . فعاجلاً أو آجلاً سيصلان إلى النقطة التي يستطيعان عندها أن ينطلقا ويمارسا حياتهما .

وعندما يصل الزوجان إلى تلك النقطة ، فالخطوة التالية هي أن يكتشف كل منهما ما كان يمر به الآخر. فكل منهما بحاجة لأن ينفس عن مشاعره وأن يفضي للآخر بمكنون فؤاده، وأن يصرح للآخر بأقصى وأقصى مخاوفه لكي تخرج تلك المخاوف من صدره بلا رجعة. وعلى الأبوين أن يحاولا مناقشة كل الموضوعات لا سيما القرارات المهمة. فلربما كان الاتصال هو أهم العوامل في تكيف الزواج مع رعاية الطفل التوحيدي.

وربما يعاني بعض الآباء من الإعياء المزمن لأن بعض الأطفال التوحديين إذا لم يتوافر الإشراف عليهم باستمرار قد يؤذون أنفسهم أو الآخرين؛ ولذا فاتهم ينهكون ويهلكون آباءهم طوال النهار .

ويمر كثير من الأطفال التوحديين بفترات يحرمون آباءهم فيها من النوم طوال الليل ، بأن يدخلوا في نوبات من الهياج والغضب واحدة تلو الأخرى . وفي تلك الحالة على الأبوين أن يتقاسما المسؤولية ، وأن يشتركا في فترة الرعاية الليلية بحيث يستطيع كل منهما أن يحصل على قسط من الراحة .

ولكي لا تصبح توحدية الطفل هي هم الآباء الأكبر وشغلهم الشاغل، وموضع تركيزهم الوحيد فعليهم أن يرتبوا وقتاً - ولو قصيراً - للخروج للتنزه، أو لتناول العشاء خارج البيت ، فمجرد معرفة المرء أنه سوف يخرج من البيت ومن جو البيت يمكن أن يجدد طاقته على نحو هائل . كما أن قيام الآباء بصناعة بعض الأشياء بأنفسهم يعتبر أسلوباً علاجياً بالغ الأهمية . فإن لم يشغل الآباء أنفسهم بما يفيد شغلهم أنفسهم بكل ما يضر من مشاعر الذنب والرفض والسخط واليأس، ورحم الله الإمام الشافعي إذ يقول: " نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل"

وليطمح كل من الزوجين - مهما كانت الصعاب - أن وزجه وأطفاله يحتاجون إليه أكثر من أي وقت مضى . ولربما كانت توحدية الطفل فرصة لتقوية أواصر الود ورعاية شجرة الحب في البيت أكثر من ذي قبل ، فرب ضارة نافعة .

٩- الاتصال بالآخرين :

ربما تكون قراءة بعض الكتب والكتيبات والنشرات المتوفرة بالتوحدية مفيدة جداً للآباء، ولكن ليس من شيء أنفع من الحصول على المعلومات التي أثمرتها الخبرة والله تعالى يقول ﴿ وَلَا يَنْبُكَ مِثْلُ خَيْرٍ ﴾ [فاطر: من الآية ١٤] ويقول ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٧]. فاتصال الأبوين بمجموعات دعم الآباء ، وبآباء الأطفال التوحديين يمكنهما من تبادل الأسئلة والاستفسارات والنصائح والاهتمامات والمشاعر مع غيرهم من الآباء. وأهم من ذلك أن الأبوين

سيشعران أنهما ليسا وحدهما في مكابدة الغم والغضب والألم. كما أنهما سيحصلان على النصائح العملية التي تساعداهم على مواجهة التحديات اليومية في رعاية طفلهم التوحيدي. بل ربما يجدان من هو على أتم استعداد لأن يساعداهما في رعاية ابنهما في بعض الوقت ويوفر لهما وقتاً للراحة هما في أمس الحاجة إليه. كما أن مجرد الاستماع إلى قصص الآباء الآخرين ذوي الأطفال التوحيدين أو ذوي الاحتياجات الخاصة يمكن أن تساعد في تخفيف وحدتهما .

١٠- عدم اليأس :

من المستحيل أن يتنبأ الآباء في سن مبكرة بمقدار ما يمكن أن ينجزه طفلهم التوحيدي فالأطفال مثلهم مثل باقي الأطفال يولدون ولديهم قدرات متنوعة وطاقات متفاوتة، وليس هناك محك ثابت تقاس عليه قدرات الطفل التوحيدي. فعلى الآباء ألا يحددوا أهدافاً بعيدة المدى لطفلهم، بل عليهما أن يركزا على الخطوات البسيطة الصغيرة التي توصل الطفل في النهاية إلى تلك الأهداف .

وقبل كل شيء على الأبوبين أن يحاولا جاهدين أن يحتفظا بروح الدعابة والمرح. وليس من شك في أن رعاية الطفل التوحيدي ستجرهما إلى بعض المواقف المحرجة ؛ فإذا استطاع الوالدان أن يركزا على الجوانب الطريفة في تلك المواقف ، وأن ينظرا إليها بعين الرضا والمرح ، فإن ذلك سوف يخفف أثر تلك المواقف عليهما وسيزيح عنهما قدراً كبيراً من التوتر الناتج عنها . ومن ذلك ما تذكره والدة مايك من أنها وزوجها ومايك خرجوا لتناول الطعام في أحد المطاعم. وكانوا يقفون مع عدد من الناس في طابور ليطلبوا وجباتهم ، وفجأة انسل مايك من الطابور ودلف إلى القاعة ، وجلس على منضدة تجلس عليها إحدى الأسر ، ومد يده وتناول سندويتشاً كان أمام أحد الشباب ، وأنشب أسنانه فيه ، والتهم جزءاً كبيراً منه . ونظراً لأن ذلك الشاب كان مشدوها لما حدث ومأخوذاً بسرعة الموقف ، وغرابة سلوك مايك ، فإنه فغر فاه ، وجحظت عيناه ، ولم ينبس ببنت شفة . ولم يستطع والد مايك ولا والدته أن يذكرنا أن هذا الطفل طفلهم ، ولكنهما أسرعاً إلى الاعتذار وبدلاً هذا الشاب بطعامه طعاماً آخر . وأثناء عودتهما لم

يركزا على الموقف المحرج ، وإنما ركزا على الجانب الآخر فراحا يتبادلان الضحكات على منظر ذلك الشاب المشدوه ، وتعبيرات وجهه التي استودت عليها الدهشة . وصرفهما التركيز على دهشة ذلك الشاب عن التركيز على العتاب وعلى من تقع مسئولية سلوك مايك المخطئ . ولربما سبب العتاب كثيراً من التوتر والضيق لو أنه شق طريقه إليهما . فعلى الآباء أن يتذكروا أن طفلهم ما زال طفلاً وأن جميع الأطفال يقومون بكثير من الأفعال المضحكة . وعليهم أن يتذكروا جيداً أن الضحك ليس هو العلاج الناجح والدواء الناجع للتوحدية ، ولكنه قد يخفف بعض الألم الناتج عنها .

خاتمة :

ربما يشعر آباء الطفل التوحدي أن توحدية طفلهم تلون كل شيء يفعلونه وتصبغه بصيغتها . فعلى سبيل المثال ربما لا يستطيع أحد الآباء أن يستمتع بقراءة رواية أو بالجلوس مع أصدقائه دون أن ينغص شبح التوحدية لحظات صفائه ونشوته، ولربما لا يستطيع أحد الآباء أن يشتري صحيفة دون أن يساوره القلق هل يا ترى سيتعلم ابنه القراءة أم لا ؟ ومع ذلك بمرور الزمن تفقد سطوتها على الطفل ويقل التركيز عليها رويداً رويداً ، فلا تعد تبتلع وتلتهم وقت وحياة الآباء . فعلى سبيل المثال أصبح مايك شاباً يافعاً ، وعلى مر السنين مر بدم وجذر ، وارتفاع وانخفاض ، ومر بكثير من الأفراح والأفراح ، وبأوقات سرور وحبور ، وأوقات ملؤها الهم والغم والكرب المستطير ؛ ومر في طريقه بالنجاح والوفاة . ولكنه في النهاية تمكن من تحقيق بعض الأهداف التي لم يكن والداه يحلمان أن يقترب منها بله يحققها . ويصرح والداه بأن له أبلغ الأثر في حياتهما لدرجة أنهما لا يستطيعان أن يحصيا تأثيراته على حياتهما العائلية وعلى نموها الشخصي ؛ ويضربان المثل ببعض الدروس التي تعلمها منه على النحو التالي :

- تعلم الأبوان أن يقدرنا النعم التي أنعم الله بها عليهما حتى قدرها وأدركا القيمة الغالية جداً لأول كلمة نطق بها مايك ، ولانفجاره بالضحك السعيد عندما يقلد والده أصوات الحيوانات .

- تعلم الأبوان أن يقدرا أي إنسان آخر - وإن كان به ما به من مشكلات وإعاقات وتعلما أن ينظرا إلى نقاط القوة في طفلهما بدلاً من التركيز على نقاط الضعف . تعلم الأبوان العطاء بدلاً من الأخذ وذلك بمساعدة الأسر الأخرى في أوقات الشدة والألم ، وبالتطوع لخدمة المعوقين . وبتقديم أوقاتهم وطاقاتهم ومواهبهم لمساعدتهم بشتى السبل .

- وأعلى من ذلك وأعلى أنهما تعلما أن يوسعهما أن يعيشا سعيدين وأن يستمتعا بحياة هائلة على الرغم من إعاقة طفلهما . إذ تعلما أن يضحكا على أخطائهما بدلاً من أن يثورا وينفجرا بسبب تلك الأخطاء . وتعلما أن يتكئ كل منهما على الآخر ، وأن يدعم كل منهما الآخر بحبه ويعتز به وخفف عنه يوماً بيوم ، ولحظةً بلحظة .

وربما يشعر الآباء بأن توحديّة طفلهم قد غيرت إدراكه ومنظوره لكل ما هو مهم تغييراً كاملاً . والأهم من ذلك أن يدرك الآباء أنهم أصبحوا يقدرون أشياء عظيمة كانوا ينظرون إليها من قبل على أنها هينة وبسيطة. لربما تتداعى الأمور التي كان الآباء ينظرون إليها على أنها مهمة وتترنح وتتهاوى وتفقد أهميتها وتصبح هباءً منثوراً إذا قورنت بحضن من ذلك الابن الضعيف ، أو بجلسة يجلسها الأبوان مع طفلهما . ولربما كان إدخال السرور على ذلك الطفل ورسم الابتسامة على شفتيه ، وجعله يضحك على طرفة كفيفاً بأن يجعل الأب يشعر بأنه أغنى من ملوك الأرض أجمعين ، ولربما كان ذلك أحب إليهما من كنوز الدنيا ، ومما طلعت عليه الشمس وغربت . ولو لم يكن من مزايا تربية ورعاية الطفل التوحدي إلا أنها تغرس في الآباء وتنمي فيهم ذلك الإحساس بقيمة تلك النعم وتلك الأمور البسيطة في ظاهرها العظيمة في جوهرها ، لكان ذلك كافياً لأن يثري حياتهم عدة مرات ، ولأن يجعلهم يستمتعون بها أضعافاً مضاعفة . فليعلم آباء الطفل التوحدي أن طفلهما توحدي وليس يوسعهما تغيير تلك الحقيقة . ورحم الله الإمام الشافعي إذ يقول :

ومن نزلت بساحته المنايا فلا أرض تقيه ولا سماء

وليعلم الآباء أن التوحديّة ليست نهاية العالم ، ولا خاتمة الحياة . ولا يمكن إنكار أنها سوف تؤثر على حياته ، ولكن التحدي الحقيقي للآباء هو أن يتجاوزوا التوحديّة إلى ما وراءها وهو الطفل نفسه ، وألا تصبح التوحديّة هي

كل ما يرون . ولسوف يأتي اليوم الذي يرمق فيه الوالدان طفلهما وهو يعمل ويلعب وينخرط في بعض الأنشطة . ونهمس في آذان آباء الأطفال التوحيدين وذوي الاحتياجات الخاصة بقول الإمام الشافعي رحمه الله :

وطب نفساً إذا حكم القضاء

فما لحادث الدنيا بقاء

دع الأيام تفعل ما تشاء

ولا تجزع لحادثة الليالي

وبقوله رحمه الله :

أبشّر بخير فإن الفارج الله

لا تيأسن فإن الكافي الله

لا تجزعن فإن المانع الله

إن الذي يكشف البلوي هو الله

فحسبك الله في كل لك الله

يا صاحب الهم إن الهم منفرج

اليأس يقطع أحياناً بصاحبه

الله يحدث بعد العسر يسرة

إذا بليت فتق بالله وأرض به

والله ما لك غير الله من أحد